جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

المفردات الجوامع في القرآن الكريم
بلاغةً وموقعا

إعداد
د. محمد عبد الله محمد الفقي
المدرس في قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بالمنوفية

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية - محكمة - نصف سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

المفردات الجوامع في القرآن الكريم بلاغةً وموقعا

محمد عبدالله محمد الفقي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، المنوفية، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: mohamedelfeki. lan@azhar.edu.eg

الملخص:

يدور هذا البحث حول فكرة المفردات الجوامع في القرآن الكريم، وهي كل كلمة أغنت عن ذكر كثير من العبارات والتفصيلات، والقرآن غنيّ بتلك المفردات، وله مسالك متعددة في إيرادها، منها ما يأتي مطلقا من القيود التي تحدد معنى الكلمة وتقصرها على بعض المعاني، ومنها بناء الكلمة على طريقة خاصة، ومنها ذكر الكلمة الجامعة ثم إيراد ما يبينها وما تشتمل عليه بعدها، والبحث في هذا النوع يميط اللثام عن وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم، ويكشف عن سرّ من أسراره، وفي نهاية المطاف توصلت إلى عدة نتائج من أهمها: أن القرآن لا يزال مليئاً بدلائل الإعجا ، وأسرار البلاغة، وأن المفردات الجوامع وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ومظهر من مظاهر أسراره، وأيضًا إيجاز القصر ليس مقصوراً على الجمل التي هي جوامع للكلم، ولكن ربما أتي بالمفردة كذلك، كما أن المفردة الجامعة صالحة لاستيعاب كل ما قاله أهل التفسير والمعاني في توضيح دلالتها، وبيان المقصود بها، للقرآن الكريم مسالك متعددة في إيراد المفردات الجوامع تتجلى فيها روعة الإعجاز، وبراعة الإيجاز، حين تطلق الكلمة من القيود فإنها تكون صالحة لتجمع كل المعاني التي تكون قيدا فيها ، وبيانا لمعناها، الكثير من المصطلحات الشرعية التي وردت في القرآن يغني ذكرها عن العديد من تفصيلات الأعمال والتشريعات، تتدخل الصياغة اللغوية في تحديد جمعية الكلمة أو عدم جمعيتها، حين يرد بيان المفردة الجامعة بعدها مباشرة ،فإن ذلك يزيد من سبك الكلام والترابط بين أجزاءه، والتناسب بين مكوناته، ضرورة العناية بمقالات أهل التفسير، وحسن النظر في مقالاتهم، وإسقاط القواعد البلاغية عليها ومزجها بها ،فالبلاغة مخبوءة تحت كلامهم ،ومركوزة في مناهجهم وأساليبهم.

الكلمات المفتاحية: المفردة الجامعة، الإيجاز والإشارة، مسالك المفردات الجوامع في القرآن، قيود الكلمة، وجوه الإعجاز.

The vocabulary of the mosques in the Noble Qur'an in eloquence and position

Mohammed Abdullah Mohammed Al-Feqi
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Menoufia, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
E-mail: mohamedelfeki. lan@azhar.edu.eg

Abstract:
This research revolves around the idea of the vocabulary of the mosques in the Holy Qur'an, which is each word that sufficed from mentioning many phrases and details. Including building the word on a special method, including mentioning the comprehensive word and then listing what it shows and what it includes after, and research in this type unveils one of the aspects of the eloquence of the Noble Qur'an, and reveals one of its secrets, and in the end I reached several results, the most important of which are The Qur'an is still full of indications of brilliance, and the secrets of rhetoric, and that the collective vocabulary is one of the aspects of the inimitability of the Holy Qur'an, and one of the manifestations of its secrets. In order to accommodate everything that the people of interpretation and meanings said in clarifying its meaning and clarifying what is meant by it, the Holy Qur'an has several paths in the introduction of comprehensive vocabulary, in which the splendor of the miraculous, and the brilliance of brevity, when the word is released from restrictions, it is valid to collect all the meanings that are a restriction. It contains, and to clarify its meaning, many of the legal terms mentioned in the Qur'an that need not be mentioned about many details of works and legislation. And the proportionality between its components, the necessity of taking care of the articles of the people of interpretation, and looking into their articles well, and dropping the rhetorical rules on them and mixing them with them.

Keywords: Comprehensive Vocabulary, Brief And Reference, Vocabularies Of The Mosques In The Qur'an, Word Restrictions, Faces Of Miraculousness.

والقرآن ملآن مِن الجامع

مفردات القرآن للفراهي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيّما ، فجمع فيه بيان خير الدنيا والآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله الذي أوتي جوامع الكلم ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أهل الفصاحة والبلاغة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ..

فالمفردة هي اللبنة الأولى في بناء الكلام، وقد عُني بها أسلافنا العلماء من البلاغيين عناية كبيرة تأويلاً لمُشكِلها، وتبييناً لمجازها من حقيقتها ، وبحثاً عما يُخلّ بفصاحتها ، وسبراً لأغوار جمالها ومناط إعجازها ، ووضعوا لذلك كله الشروط والضوابط التي تضمن قيام المفردة بدورها في صرح البلاغة من تمام الدلالة ووضوحها ، وحسن تبرجها ،ودقيق تركيبها، ليكون ذلك وفاءً بحق المعاني ،وكشفاً عن مكامن أسرارها ، واستنتاجاً لفوائدها وغررها .

وقد لفت انتباهي كلامُ البلاغيين في مبحث الإيجاز عن إيجاز القِصر، وهو الكلام القليل في مبناه الكثير في معناه، وكيف أنه سمة من سمات البلاغة، ومظهر من مظاهر البراعة.. غير أن إنعام النظر في القرآن الكريم يهدي إلى أن هناك نوعاً آخر من الإيجاز – أو إن شئت فقل : وجهاً من وجوه الإعجاز– يكون بالمفردة وليس بالجملة، حيث نجد الكلمة الواحدة قد حوت الكثير من المعاني والدلالات ، ولخّصت العديد من الفوائد والغايات ، وأغنت عن كثير من الألفاظ والعبارات ، وهو ما يصح أن نطلق عليه مسمى (المفردة الجامعة).

وهذا ما دعاني لكتابة هذا البحث أتوخى فيه إبراز سمة من سمات المفردة القرآنية ألا وهي :–

جمعها لأكثر من معنى، وتضمنها لأكثر من دلالة ، وصحة حملها لكل تلك المعاني والدلالات، مما يوجب الاختصار والتركيز.

ومن دواعي البحث أيضاً بيانُ وجه من وجوه الإعجاز في دقة اختيار الكلمات، وحسن استخراج دررها وفوائدها المتكاثرة، ومعرفة الطرق التي تأتي عليها المفردات الجوامع في القرآن .

وقد فتح الباب أمام هذا البحث كلمةُ الإمام الفراهي[١] في كتابه (مفردات القرآن) حين قال :" والقرآن ملآن من الجامع "،وذلك عند حديثه عن مميزات المفردة القرآنية ، وأسباب التوهم والخلط في فهمها ،وما يتوجب على الناظر في القرآن عند التعامل مع مفرداته وبيان حقائقها ومعانيها ، حتى لا يخلط بين المفردات الجامعة والمفردات المشتركة ،فلكلٍّ منها مواضعه [٢].

وقد بيّن الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه (مفردات ألفاظ القرآن) :"أن أول ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلومُ اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم

(١) عالم الهند وأديبها : عبدالحميد بن عبدالكريم بن قربان بن قنبر بن تاج على ،حميد الدين أبو أحمد الأنصاري، الفراهي ، برع في العلوم الشرعية والعربية والعقلية ، وله في كلٍّ منها مؤلفات تشهد بعلو كعبه ، وسبقه وعظيم مرتبته .سخّر كل معارفه لخدمة القرآن الكريم .. من مؤلفاته : مفردات القرآن ، نظام القرآن ، أساليب القرآن ، حجج القرآن ،، التكميل في أصول التأويل ، تحفة الإعراب، جمهرة البلاغة ، الطريف في التحريف...وغيرها. توفي في ١٩ جمادى الآخرة١٣٤٩هـ.

(٢) ينظر: مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير آيات قرآنية لعبد الحميد الفراهي تحقيق :محمد أجمل أيوب الإصلاحي دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى ٢٠٠٢م صـ١٠٤

القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع ، فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم . وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"(١)

وجعل "الإمام الخطابي" حسن اختيار الكلمات من عمود البلاغة وأساسها فقال : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوعٍ من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعَه الأخصَّ الأشكلَ به ، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة "(٢)

وبيّن الإمام عبد القاهر رحمه الله في (دلائل الإعجاز) عند حديثه عما أعجز العرب في زمن المبعث : ... أنهم فتّشوا القرآن ودققوا النظر فيه وتأملوه سورة سورة ، وعُشراً عُشراً ،وآية آية ،فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظةً يُنكر شأنها ، أو يُرى أن غيرها أصلحُ هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ،وأعجز الجمهور ،ونظاماً والتآماً ،وإتقاناً وإحكاما ،لم يدع في نفس بليغٍ منهم ، ولو حكّ بيافوخه

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق ناصر الدمياطي مكتبة فياض ٢٠٠٩م صـ٢٤

(٢)بيان إعجاز القرآن للخطابي –ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام دار المعارف الطبعة السادسة ٢٠٢٢م صـ٢٩

السماء ، موضع طمعٍ ،حتى خرست الألسن عن أن تدَّعي وتقول ، وخَذيت القروم فلم تملك أن تصول "[١] .

وقد اتبعت منهجا اختياريا ،انتقيت فيه بعض المفردات الجوامع التي تمثل الظاهرة تمثيلا وافيا، وتقوم بالغرض المراد من البحث .وأتبعت ذلك بالتحليل بغية الكشف عن مواطن تلك المفردات، وأسرار التعبير بها، وما تحويه من معاني وتستتبعه من دلالات.

وكانت خطة البحث وتقسيمه كالآتي :

- **المقدمة** :وفيها حديث عن فكرة البحث ، وخطته ، ومنهجه .
- **التمهيد:** وفيه بيان لمعنى الكلمات الجوامع ، والمقصود بها ، ومواطنها في القرآن الكريم ، ومسالك القرآن في إيرادها وبيانها والكشف عنها ، وبعض الدقائق والأسرار وراء استخدمها .
- **واقتصرتُ في هذا البحث على ثلاثة مسالك فقط ،ضمنتها المباحث الأتية :**
  - **المبحث الأول** : إطلاق الكلمة من القيود.
  - **المبحث الثاني:** بناء الكلمة على طريقة خاصة .
  - **المبحث الثالث:** تبيين الوجوه والمعاني المطوية في الكلمة الجامعة بعدها.

ثم ذكرتُ في الخاتمة أهم ما توصل إليه البحث من نتائج وفوائد ، وأتبعت ذلك بالفهارس الكاشفة .

وأسأل ربي التوفيق والسداد .

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني قرأه وعلق عليه محمود شاكر مكتبة الخانجي الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م صـ٣٩

التمهيد

حول مصطلح (المفردات الجوامع) :

المفردات : جمع مفردة، وهي اللفظة الواحدة . والجوامع : جمع جامعة من الجمع :وهو أصل يدل على تضامّ الشيء، يقال :جمعتُ الشيء جمعا ،وذلك بتقريب بعضه من بعض ، والأمر الجامع :هو الأمر الذي يشمل الناس نفعه وضره فيجمعهم الإمام للتشاور ..والجوامع :الأغلال؛ لجمعها الأطراف. فالمعنى المحوري للكلمة يدور حول " تضام أشياء متجانسة كثيرة تلاقيا ،أو تلاحما ،أو تراكما "[1].

فالكلمة دائرة حول الضم والتأليف والتقريب بين الأشياء المتجانسة وعقد الأواصر بينها ..وهذا من أخص خواص المفردات الجوامع في القرآن.

وعلى ذلك نستطيع تعريف المفردات الجوامع بأنها :-

كل كلمة جمعت معاني كثيرة، وأشارت إلى أغراضٍ متنوعة لا تتعارض فيما بينها، أو استغني بذكرها عن ذكر العديد من التفصيلات ،فهي تلخّص وقائع وأحداثًا، وتختزل أزمانا وأطوارا ،وتطوي صفاتٍ ونعوتا متعددة في لفظ واحد .

لماذا يستخدم القرآن الجوامع من الكلمات ؟

قد يتبادر إلى الذهن عند ذكر (المفردات الجوامع) أن المراد دوماً هو الاختصار والإيجاز ..ولكن ليس هذا هو الغرض الوحيد لاستخدام الكلمات الجامعة ، وإنما هناك العديد من الأسرار مخبوءة تحت كل كلمة ، وكامنة في كل موطن ..من ذلك:

- طيّ الكثير من المعاني في لفظة واحد تقوم بدور كلمات وعبارات كثيرة ، وهذا مما يدخل في باب الإعجاز والتحدي، وهو لون من الإيجاز

(١) ينظر : لسان العرب ، مقاييس اللغة ، مفردات القرآن للراغب ، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن (مادة /جمع)

الذي بنيت عليه لغة العرب الذين كانوا " إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد "[١] ،ومظهر من مظاهر البلاغة التي قيل في تعريفها : "هي لمحة دالّة" [٢].

- الحث على إنعام النظر ، وإدمان التأمل في براعة كل كلمة في موضعها ..وكيف أن غيرها لا يسدّ مسدها ، ولا يؤدي ما جاءت من أجله .
- التنقير والتفتيش عن المعاني الجديدة التي يصلح أن تنضوي تحت مظلة الكلمة الجامعة ..وهذا وجه من وجوه وصف القرآن بأنه "لا يَخْلَق على كثرة الردّ.
- المقارنة بين استخدام الكلمة الجامعة وبين غيرها من مرادفاتها ، واستكناه الفروق بينهما .
- حسن التعليم بانتقاء اللفظ، ودقة اختياره ، ليكون في مكانه أمكن ، وبسياقه أليق .

<u>جذور المسألة وأصولها :</u>

أصول تلك المسألة وجذورها متشابكة مع فنون بلاغية، وضاربة في مباحث بلاغية متعددة، وفروعها مترابطة مع مسائل بيانية متنوعة،.. ونراها " موزعة تحت عناوين : الإشارة ،والكناية ، والإيجاز ، والتلميح ، والتلميح والتعريض "[٣] ، غير أن أكثر ما يتصل بها هو مبحث الإيجاز حيث توارد

(١) الخصائص لأبي الفتح ابن جني تحقيق : محمد على النجار دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ ٨١/١

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق / محمد محيي الدين عبدالحميد دار الطلائع ٢٠٠٩م ٢٠٠/١

(٣) جماليات المفردة القرآنية أحمد ياسوف دار المكتبي الطبعة الثانية ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م صـ ٢٧٠

أهل البلاغة على ذكر نوعي الإيجاز (الحذف – القِصر) ، وبينوا في حذف القصر أنه احتواء اللفظ القليل على المعنى الكثير [١]، وفي هذا ارتباط كبير بين الإيجاز والمفردات الجوامع، فالاثنان يلتقيان في قلة اللفظ واتساع المعنى، غير أن الأول إيجاز في عدة جمل، والثاني إيجاز باللفظ الواحد المشتمل على معانٍ كثيرة ، واكتناز تلك المعاني فيه، وصلاحيته لشمولها واحتوائها في طياته .

وكذلك مبحث الإشارة الذي عرفه ابن أبي الإصبع فقال : " هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعني الكثير بإيماءٍ أو لمحة تدلّ عليه " مبينا أن ذلك مشروط بصحة الدلالة وحسن البيان مع الاختصار .. ثم أورد قول امريء القيس في صفة الفرس :

على هيكلٍ يعطيك قبل سؤاله أفانين جَرْيٍ غير كزٍّ ولا وانِ

وقال معقبا : فإنه أشار بقوله " أفانين جري " إلى جميع صنوف عدو الخيل المحمودة .."[٢]

<u>سبيل القرآن في بيان الكلمات الجوامع :</u>

سلك القرآن مسالك متعددة في بيان الكلمات الجامعة ، والكشف عما حوته من المعاني ، وما انطوت عليه من الأسرار:-

- فتارة يبين الوجوه والمعاني المطوية في الكلمة الجامعة بعدها مباشرة .
- وتارة أخرى يبينها في مواطن متفرقة من القرآن .

---

(١) ينظر النكت للرماني صـ ٧٦، دلائل الإعجاز صـ١٤٦ ، كتاب الصناعتين صـ١٥٨ ، تلخيص المفتاح للقزويني صـ ٣٣٢ ، شروح التلخيص ١٨٣/٣

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري تحقيق : حفني شرف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م صـ٢٠٣

- وربما ترك الكلمة مطلقة من التقييد لتشمل كل ما يصلح أن يكون قيداً فيها.
- وأحيانا تأتي على بناء خاص ، أو صيغة مخصوصة تنبئ عن جمعيتها .
- وربما جاءت في أول موطن الإخبار بها ثم توالى بيانها فيما بعدها في السياق.

وفي المباحث الآتية عرض لثلاثةٍ من مسالك القرآن في إيراد المفردات الجوامع ، وكيفية بيانها، ومواطن إيرادها، وبلاغتها في سياقها .

المبحث الأول :

إطلاق الكلمة من القيود.

من مسالك المفردات الجوامع في القرآن الكريم أن تأتي الكلمة الجامعة مطلقة من القيود التي تخصصها وتضيّق أفق اتساعها ،فنجد المفردة الجامعة عند إطلاقها من القيود قد حوت وشملت وجمعت الكثير والكثير من المعاني ، وذهبت النفس في بيانها كل مذهب ن وصلحت أن تنطوي تحتها كل ما يصح تأويلها به .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك : كلمة (مُطهَّرة):

وردت كلمة مطهرة في خمسة مواطن ، ثلاثة منها صفة لنساء الجنة، وما هنّ عليه من صفاء ونقاء ، واثنتان في وصف الصحف التي فيها الأوامر والنواهي أو القرآن الكريم ، والذي يعنينا في هذا المقام هو المواطن الثلاثة التي ورد فيها وصف نساء الجنة :

الموطن الأول في سورة البقرة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥] .

والثاني في سورة آل عمران :﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ﴾ [آل عمران: ١٥]

والثالث في سورة النساء : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾[النساء: ٥٧] الآيات الثلاث تذكر ما أعده الله سبحانه من نعيمٍ لأهل الجنة – جعلنا الله منهم – وتعدد ما لهم فيها من صنوف المتع التي منها الأزواج المطهرة من كل أذى ومأثم ومن كل عيب .

قال ابن فارس : (طهر): الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدل على نقاء وزوال دنس. ومن ذلك الطُّهر ، خلاف الدنس . والتطهر :التنزه عن الذم وكل قبيح.

فالكلمة تدل على النقاء والصفاء والخلو من كل ما يُذمّ، وهي على وجازتها وقلة حروفها قد جمعت كل ما يُبهج ويَسُرّ في المرأة ، ونفت كل ما يُحزن ويضر منها سواء أكان في الخَلق أم الخُلق ، أو كان في الصفات الظاهرة ، أو الباطنة ، فهنّ مطهرات في أبدانهن وخَلقهن ، مطهرات في أقوالهن وألسنتهن ، مطهرات في أفعالهن وسلوكهن ، مطهرات في أخلاقهن وتعاملهن ..إلخ .

وقد تواترت أقوال المفسرين على أن المقصود بهذه الكلمة أمرٌ عامٌ جامع لكل ما تتنزه عنه المرأة في المظهر أو المخبر، وأن هذه الطهارة شاملة للحسيّ منها والمعنوي، وليست مقصورة على إحدى الطهارتين ، ومن ذلك قول الفخر الرازي رحمه الله : " ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة لكل مطلوب، فقال (مطهرة) ويدخل في ذلك الطهارة من الحيض والنفاس وسائر الأحوال التي تظهر عن النساء في الدنيا مما ينفر عنه الطبع، ويدخل فيه كونهن مطهرات من الأخلاق الذميمة ومن القبح وتشويه الخلقة، ويدخل فيه كونهن مطهرات من سوء العشرة."[١].

واستعرض الشيخ مرعي الحنبلي ما يمكن أن يدخل تحت هذه اللفظة الجامعة فقال: "واختلف في تطهير نساء الجنة: فقيل: مطهرات الأبدان في الخِلقة، هن من المسك والكافور والعنبر والزعفران لا من التراب والمني والعلقة.

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ ١٦٥/٧

وقيل: مطهرات الأبدان في الحال، فليس تحت الجلود دمٌ ولا قيحٌ، ولا في البطون ما في بطون البشر.

وقيل: مطهرات الأبدان عن الأمراض والأعراض من الورد والدرن والصداع وسائر الأوجاع.

وقيل: مطهرات الأبدان عن الولادة.

وقيل: مطهرات الأبدان عما يخرج منها من بول أو مني أو غائط أو حيض أو نفاس أو مخاط أو بلغم.

وقيل: مطهرات الأفعال فلا يصاخبن ولا يجادلن ولا يعترضن ولا يُعرضن ولا يغلطن القول ولا يسئن الفعل ولا ينشزن.

وقيل: مطهرات الأخلاق فلا يحسدن ولا يحقدن ولا يبغضن ولا يغرن.

وقيل: مطهرات من استرابة القلوب بهن فلا يملن إلى غير أزواجهن، ولا يقع في قلوب الرجال ما ينفر طباعهم عنهن. ثم قال قلت: كل من هذه الأقوال صحيح في حقهن"[1]

مدخل الكلمة في باب الجوامع :

لعل الباب الوسيع الذي دخلت منه كلمة (مطهرة) في باب الجوامع أنها جاءت مطلقة غير مقيدة بشيء ، فلم يقل الله تعالى : مطهرة من العيوب الخَلْقية الظاهرة ، أو العيوب الخُلُقية الباطنة ، ولم يقل مطهرة مما يعكر صفو العين أو صفو النفس والصدر ..وإنما أطلقها من كل قيد أو تخصيص لتكون جامعة شاملة كل ما يكون منه التطهر ، وكل ما يندرج تحت هذه اللفظة .وهذا ما ألمح إليه الزمخشري بقوله : " ويجوز لمجيئه

(١) الكلمَاتُ البَيِّنَاتُ في قَولهِ تَعَالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ} للشيخ : مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلى تحقيق د. عبد الحكيم الأنيس – المكتب الإسلامي لإحياء التراث الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م صـ٩٩

مطلقاً: أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا، مما يكتسبن بأنفسهنّ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة، ومن سائر عيوبهنّ ومثالبهنّ وخبثهنّ وكيدهنّ"[١].

بلاغة اختيار وزن الكلمة بين طاهرة ومُطهَّرة وعلاقتها بالجمعية :

جاءت الكلمة على وزن مفعّلة ، وهو وزن يفيد شيئين :

الأول : التكثير المستفاد من أثر التضعيف في بنية الكلمة ،وما يدلّ عليه هذا التضعيف من المبالغة في التطهير ، والتصفية والتهذيب ، وأن تلك النساء قد بلغن الغاية في التهذيب فـ " مُطهرة تَجمع الطهارةَ كلها؛ لأن مُطهرة أبْلَغ في الكلام من طاهرة، ولأن مطهّرة إنما يكون للتكثير"[٢]. وهذا مما يتناسب مع قبول الكلمة لأن تكون جامعة، وهو من جميل ما أعده ربنا الكريم في جناته لعباده الأبرار المتقين كما قال في الحديث القدسي " أعددت لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ". وكما قال تعالى في سورة محمد : ﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ ﴾ [محمد: ٦] أي طيّبها وكمّلها ، وزينها وجمّلها .

الثاني : الإشارة إلى أن هناك من قام على تطهيرهن، وإعدادهن، وإصلاحهن ..ولا يكون ذلك إلا من قبل الله تعالى ." وَذَلِكَ يُفِيدُ فَخَامَةَ أَمْرِ أَهْلِ الثَّوَابِ كَأَنَّهُ قِيلَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي زَيَّنَهُنَّ لِأَهْلِ الثَّوَابِ"[٣]. وهو ما أفاده مسلك التنكير الذي أتت عليه الكلمة ، ولو قيل (طاهرة، أو طاهرات) لفاتت هذه النكتة المشعرة بفخامة ذلك الجزاء ، وعظم أهله

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ١٠٩/١

(٢) معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي طبعة عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ١٠٢/١

(٣)مفاتيح الغيب ٣٥٩/٢

المستحقين له، ولكان المعنى فيها ضعيفا حيث لا يعدو أن يكون وصفا لهن بالطهارة لا التطهير . " والوصفُ بالطهر أبلغ من الوصف بالحُسْن، لأن الحُسْنَ ربما يتضمن خُبثًا، قال – صلى الله عليه وسلم –: "إياكم وخضراء الدِّمن"(١).

بلاغة مجيء الكلمة مفردة:

ولاصطفاء صيغة المفرد هنا (مطهّرة) على الجمع (مطهّرات) سر بديع من أسرار التعبير يشعر بوحدة العمل فيهن، وأنهن على صفة واحدة في التطهير ، وأن الله صبغهن صبغة واحدة كما بين البقاعي فقال " وكان الوصف بالمفرد أدل على أنهن في أصل الطهارة كأنهن نفسٌ واحدة قال عادلاً عما هو الأولى من الوصف بالجمع لجمع من يعقل: {مطهرة} لأنهن مقتبسات من أنفسهم كما قال تعالى :﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١]

٢- ﴿ما اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾

جاءت كلمة (قوة)في سياق تحريض الأمة على ضرورة إعداد العدّة ، والتجهيز لدفع شر الأعداء بكل ما تستطيع ، وكل ما يكون به القوة والغلبة والنصر على الأعداء ، وإلقاء الرعب في قلوبهم وإرهابهم .قال ربنا سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ

(١) دَرْجُ الدُّرر في تَفسيرِ الآيِ والسُّوَر للإمام عبد القاهر الجرجاني دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي مجلة الحكمة، بريطانيا
الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م ١٢٩/١

عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى القوة المذكورة في الآية ، وما ذكروه إنما هو من قبيل التمثيل والبيان وليس من قبيل التعيين والحصر.

- ذكر الإمام الماوردي فِيهِ خَمْسَةُ أقاوِيلَ:
- أَحَدُها: أنَّ القُوَّةَ ذُكُورُ الخَيْلِ، ورِباطُ الخَيْلِ إناثُها، وهَذا قَوْلُ عِكْرِمَةَ، وعنه كذلك: أنها الحصون .
- والثّانِي: القُوَّةُ: السِّلاحُ، قالَهُ الكَلْبِيُّ.
- والثّالِثُ: القُوَّةُ :التصافي واتِّفاقُ الكَلِمَةِ.
- والرّابِعُ: القُوَّةُ: الثِّقَةُ بِاللَّهِ تَعالى والرَّغْبَةُ إلَيْه
- والخامِسُ: القُوَّةُ :الرَّمْيُ[1]

والكلمة صالحة لاستيعاب تلك الأقوال جميعها ، بل والزيادة عليها حتى تشمل كل ما يصلح أن يدخل في نطاق القوة من كُلِّ ما يُتَقَوّى بِهِ عَلى حَرْبِ العَدُوِّ وكسر شوكته، وكُلُّ ما هو آلَةٌ لِلْغَزْوِ ووسيلة للجِهادِ ، وما تحصل به الغلبة على العدو، ودحر كيده ، وتحقيق الهدف من إعداد كُلِّ ما يُتَقَوّى بِهِ في الحَرْبِ كائِنًا ما كانَ. وما ذاك إلا لعموم كلمة (قوة)، وإطلاقها وعدم تخصيصها بشيء معين يمكن حصرها فيه .

(١) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية – بيروت ٣٢٩/٢

وممن ذهب إلى عموم الكلمة وجمعيتها ابن عطية في المحرر الوجيز، وكذا البيضاوي، والآلوسي ، والواحدي، والفخر الرازي، وأبو حيان ..وغيرهم .

قال الإمام الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوّون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين، من السلاح والرمي وغير ذلك، ورباط الخيل ،ولا وجه لأن يقال: عني بـ "القوة"، معنى دون معنى من معاني "القوة"، وقد عمَّ الله الأمر بها.(١)

وتوسع الشيخ السعدي رحمه الله في مفهوم " القوة " فأدخل فيها القوة المعنوية أيضا من تدبير وحسن سياسة ، ورأي محكم .. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأْي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير. ولهذا قال النبي ﷺ : (ألا إن القوة الرَّمْيُ) ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد

(١) تفسير الطبري ٣٧/١٤

بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب"[١].

إشكال على جمعية الكلمة :

إذا سلمنا بأن كلمة (قوة) في هذا الموطن من الكلمات الجامعة ، فإنه يرد عليها إشكال ألا وهو ورود بعض الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تفيد تفسير القوة في الآية بشيء معين وهو (الرمي) ، وأَخْرَجَ أَحْمَدُ، ومُسْلِمٌ، وخَلْقٌ كَثِيرٌ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عامِرٍ الجُهَنِيِّ قالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلّى اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَقُولُ وهُوَ عَلى المِنبَرِ: "وأَعِدُّوا لَهم ما اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ قالَها ثَلاثًا"» .

فكيف يتوافق هذا مع الوجوه التي عدّها العلماء ؟ وكيف يكون الرمي وحده هو القوة التي تردع الأعداء وتكسر شوكتهم ؟

وقد أورد العلماء هذا الإشكال(٢)، وبينوا أنه لا تعارض بين كون الكلمة جامعة وبين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ..وجعلوا بيانه صلوات ربي وسلامه عليه من قبيل التنبيه على أنجع الوسائل ، وأهم آلات الجهاد ، وأشدها نكاية في العدو ، وأولاها بالحرص على حيازتها وإتقانها ، وأن الرمى أحد معاني القوة المرادة ،وأشهرها ..وأن النص عليه لا ينفي غيره من مظاهر القوة وأدواتها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي تحقيق :عبدالرحمن اللويحق دار الغد الجديد الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م صـ٣١٤

(٢) تفسير الواحدي٣٢٩/٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤٢٠/٢ ، روح المعاني للألوسي ٢٤/١٠

مع بلاغة الكلمة، وجمعيتها :

جاءت الكلمة الجامعة (قوة) في الآية ..والقوة لا تعدّ لأنها شيء معنوي لا يدخل تحت العدّ والحصر ، وإنما المراد إعداد ما يوصّل إلى القوة ، وما يكون سبباً لحصولها ، ومكونا من مكوناتها . فـ " المُرادُ بِالقُوَّةِ هَهُنا: ما يَكُونُ سَبَبًا لِحُصُولِ القُوَّةِ.."[1] فالكلمة من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المسبَّبية حيث أُطلق المسبب وأريد السبب مبالغة ، وحثًّا على وجودها وحيازتها ؛" لأنها تعطي القوة والثقة في النفس والقدرة على القتال، فالقوة، هنا مسببة عن السلاح" [2].

وإيثار التعبير بالمجاز هنا دون الحقيقة له أثره الملحوظ في تقرير أمر مهم وهو التنويه والتنبيه على أهمية إتقان هذا المُعَدِّ ،فليس المقصود تجميع السلاح والعتاد فقط ، وإنما إتقان استخدامه ،ومهارة القتال به حتى تحصل به القوة الرادعة والمرهبة للعدو.

قال ابن فارس : " العين والدال أصل صحيح لا يخلو من العدّ.. ومن الإعداد الذي هو تهيئة الشيء ..والعُدّة : ما أُعدّ لأمر يحدث ، يقال :أعددت الشيء أُعدّه إعدادا ، واستعددت للشيء وتعدّدتُ له "[3]

واستخدام الفعل الماضي في الآية يوحى بأن المطلوب من أهل الإسلام أن يبذلوا ما يستطيعون في الإعداد، وأن يعدوا ما يقدرون على إعداده ،فإذا هم فعلوا أتاهم النصر والإمداد من الله تعالى ،إن عليهم تحريك حلقة الأسباب فقط " وما النصر إلا من عند الله " ، وفي هذا لمحةٌ طيبة أن النصر حليفهم ،وأن الله ناصرهم ومؤيدهم طالما بذلوا ما

(١) مفاتيح الغيب ٤٩٩/١٥

(٢) الجدول في إعراب القرآن تأليف محمود الصافي دار الرشيد/ دمشق الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ ٢٥٧/١٠

(٣) مقاييس اللغة / ع- د

استطاعوا ، وفعلوا ما أُمروا به ،كما جاء في السورة نفسها ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٠] ، وهذا يتناسب مع هدف السورة إذ مقصودها " تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله واعتقاد: أن الأمور ليست إلا بيده، وأن الإنسان ليس له فعل يثمر ذلك الاعتصام بأمر الله، المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين، وإذلال المفسدين، المنتح لكل خير"(١)

والتعبير بالفعل الماضي له دلالته القوية هنا ،إذا المراد أن يكون الإعداد سابقا على القتال حتى لا يباغتهم العدو : أي أفرغوا جهدكم في الإعداد ، ولا تنتظروا أن تحدث حرب أو يكون اعتداءٌ .

ولو قيل : أعدوا ما تستطيعون لتُوهّم أن الاستعداد إنما يقصد به ما يكون عن اندلاع الحرب، وقدح زنادها .

وفي التعبير بالماضي أيضاً إشارة إلى أن أهل الإسلام لابد أن يكونوا أصحاب سبق في العدة ، والإعداد معا حتى تحصل الغاية المنشودة وهي إرهاب عدو الله وعدوهم وآخرين من دونهم .

واسم الموصول هنا (ما) جاء عاما ليشمل كل ما يدخل تحت هذه الاستطاعة المأمور بها ، وهو بذلك يتلاقي مع عمومية كلمة (قوة)، وكونها كلمة جامعة .

وفي تنكير كلمة (قوة) ما يفيد معنى التعظيم لها وتفخيم شأنها ، وأن تكون قوة هائلة مخوفة تحقق الردع لكل من تسول له نفسه أن يعتدى على حرمات المسلمين، أو يستخف بهم .

وقد يحمل التنكير معنى التنويع كذلك فيلتحم مع جمعية الكلمة أيضا ، أي: أعدوا أي نوع من أنواع القوة مادية كانت أو معنوية .

(١) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ للبقاعي ١٤٦/٢

والجملة أتت في أسلوب إنشائي طريقه (الأمر) لتؤجج النفوس إلى امتثال ذلك المأمور به ، وتلهب المشاعر إلى الحرص على تنفيذه ، وليكون على محمل الحزم والجدّ ؛لما فيه نجاتهم ، وصلاح شأنهم .

وفي كلمة (أعدوا) : إشارة إلى أن يكون للمسلمين السبق على عدوهم ..وأن يكون سلاحهم من صنع أيديهم، واختراع عقولهم ، فلا يلجئون إلى غيرهم ليعطيهم ما فضل لديه من أسلحة كما هو مشاهد اليوم في دنيا الناس حيث لا تعطي الدول المصنِّعة إلا ما كان عندهم ما يفوقه بل يكسره ويدمره قبل استخدامه ..وهذا ملمح دقيق لو تنبه إليه أولوا الأمر وتأملوه لكان لنا شأن آخر ..ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وضمير الجمع في الآية يؤكد ضرورة النفرة العامة ، ويتآلف مع جمعية كلمة (قوة)،إذا المطلوب أن يكون الجميع في سياق الإعداد إما بالقوة المادية وإما بالقوة المعنوية .

وفي الجار والمجرور (لهم) ما يشير إلى ضرورة معرفة العدو الذي نحاربه ، وكيف نتغلب عليه وندمغه .

وعلى غرار هذا النمط من المفردات جاءت كلمة:

(مسلَّمة) في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾ [البقرة: ٧٠-٧١].

وكذلك كلمة (حسنة) في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

المبحث الثاني:

بناء الكلمة على طريقة خاصة .

ومن مسالك المفردات الجوامع في القرآن أن تُبنى الكلمة على طريقة خاصة، فتفيد ببنائها الجمع والشمول، ومما جاء على ذلك في القرآن نوعان من البناء :

الأول: طريقة صياغة المصطلحات الشرعية الجامعة سواء أكانت في أمر العبادة أو الأخلاق أو المعاملات أو غيرها .

الثاني : طريقة الصياغة اللغوية .

الأول: المفردات الجوامع في المصطلحات الشرعية(١) :

فعلى النهج الأول نجد الكثير من المصطلحات الشرعية التي صاغها القرآن واستخدمها تغني عن ذكر كثير من التفصيلات، فيُكتفي بذكرها ليترك للمخاطب حرية السباحة في بحر معانيها من ذلك :

١- العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [٢].كما جاء في قوله تعالى:- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وكذلك قوله تعالى :﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]

٢-الحكمة : كلمة جامعة بين العلم والعمل وذلك بصلاح الدين وإصلاح الدنيا (٣) كما في قوله تعالى﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩]

---

(١) ينظر (جوامع الكلم القرآنية) لعبدالله بن عبدالرحمن الرومي دار التدمرية الطبعة الأولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م صـ٥٩ .

(٢) رسالة العبودية لابن تيمية تحقيق : محمد زهير الشاويش نشر المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة السابعة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م صـ٤٤

(٣) مفاتيح الغيب ١٦٦/٢٦

١- الاستقامة : كلمة جامعة تجمع الدين كله. كقوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]

٢-الضُّر: كلمة جامعة لأنواع الشر، وكل ما يتضرر منه الإنسان من فقرٍ ومرض وغير ذلك.(١) كما جاء في قوله تعالى :﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]

٣- المعروف : اسم جامع لكل خير من مكارم الأخلاق وما عُرف حسنه ولم تنكره القلوب(٢) كما في قوله تعالى:﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]

٤- الفحشاء :اسم جامع لكل سوء ، فيتضمن : البخل والحرص ، والياس من الحق ، والشك في مواعيد الحق بالخلف ، والتضعيف ،وسوء الظن بالله ، وترك التوكل عليه، ونسيان فضله ، وتعلق القلب بغيره ، ومتابعة الشهوات ، وترك العفّة والقناعة ،والتمسك بحب الدنيا"(٣)كقوله تعالى:﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي تحقيق عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ ١٤/٢

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢٥١/٢، مفاتيح الغيب ٣٣٤/٨

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري تحقيق: الشيخ زكريا عميرات دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ ٥٧/٢

٥- الباطل : قال النووي قال أهل المعاني : هو اسم جامع لكل مالا يحلُّ في الشرع كالربا ، والغصب ، والسرقة ،والخيانة، وكل محرم ورد الشرع به(١). كما في قوله تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء: ٢٩]

وكذلك مصطلحات (الإيمان – الفلاح– السُّوء– الحق – الإحسان – المنكر – الإثم – التقوى).

ولو أردنا أن نتتبع المواطن التي وردت فيها كل كلمة من تلك الكلمات السابقة لطال الحديث جدا ، وخرج عن قانون البحث ..إلا أن السمة العامة والعامل المشترك بينها جميعا أنها متى وردت فإنها تجمع كل ما يصلح أن يندرج تحتها ، ويدخل في معناها، وأينما ذكرت عُلم أنه اختُصر بها أشياء كثيرة، واستغني بورودها عن إيراد تفصيلات عديدة ، وتلك إحدى مزايا الكلام العليّ المعجز ، ولذا استحقت أن تكون من المفردات الجوامع في القرآن الكريم .

(١) المجموع شرح المهذب للنووي ١٣٦/٩

الثاني : طريقة الصياغة اللغوية .

فتتدخل الصياغة اللغوية في بيان عموم الكلمة كأن تكون مصدرا ، أو صيغة مفاعلة، أو جمعا ..إلخ ، مثل : (الرفث ، إصلاح ، راودته ، منافع):-

١- **(الرفث)**

جاءت هذه الكلمة في موطنين في القرآن الكريم:

الأول : في سياق أحكام الصيام، وبيان ما أباحه الله للصائم في ليل الصوم ، وما أحله لعباده تيسيرًا عليهم ورحمة بهم بعد المشقة والعنت الذي لحق بهم بسبب منعهم من تلك الأشياء المحبوبة إلى نفوسهم والتي لم يطيقوا الصبر عنها قال ربنا الرحيم :﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٧]

والثاني: في سياق بيان أحكام الحج وآدابه، وما ينبغي للحاج أن يتجنبه من مفسدات الحج : قال تعالى :﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وسأقتصر على الموطن الأول اختصارا ومراعاة لطبيعة البحث .

وكلمة الرفث من الكلمات الجوامع التي اشتمل عليها القرآن، قال الزجاج: "اَلرَّفَثُ": كَلِمَةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ ما يُرِيدُ الرَّجُلَ مِنَ المَرْأةِ.."(١)

وفي معاجم اللغة أن " الرفث :الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته، يعني التقبيل والمغازلة ونحوهما، مما يكون في حالة الجماع، وأصله قول الفحش .. فالرَّاءُ وَالْفَاءُ وَالثَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ كُلُّ كَلَامٍ يُسْتَحْيَا مِنْ إِظْهَارِهِ. وَأَصْلُهُ الرَّفَثُ، وَهُوَ النِّكَاحُ.. وَالرَّفَثُ: الْفُحْشُ فِي الْكَلَامِ. يُقَالُ أَرْفَثَ وَرَفَثَ.(٢)

قال الراغب في المفردات (الرَّفَثُ: كلام متضمّن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجعل كناية عن الجماع في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، تنبيها على جواز دعائهنّ إلى ذلك، ومكالمتهنّ فيه.."(٣)

فتعريف الراغب للكلمة يشير إلى أن الرفث غير مقصور على فعل الجماع فقط ، وإنما يتعداه إلى ما يسبقه، أويلابسه، أو يلحق به من أمور، وهذا من مسوغات الجمعية فيها .

الصياغة اللغوية ودلالة الجمعية :

جاءت كلمة (الرفث) معرفة بأل ؛ لتشمل كل ما يدخل تحت هذا الاسم من " الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته، يعني التقبيل والمغازلة ونحوهما، مما يكون في حالة الجماع" ، ولو قيل (رفثٌ) بالتنكير لتوهم نوع معين منه ، أو شيء خاص من عموم الرفث . والتعريف هنا أيضا يتناسب مع الإباحة العامة المذكورة في قوله : (أُحلّ) إذ المراد أحل لكم كل ما كان محرّما قبل ذلك من القول أو الفعل ، أو المواعدة ..إلخ

(١) معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج ٢٥٥/١

(٢) اللسان ، أساس البلاغة / رفث

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (رفث) /٢٦٤

..قال أبو عبيدة: الرفث: اللغو من الكلام، يقال: «رفث في كلامه يرفث وأرفث» : إذا تكلم بالقبيح، ثمَّ جعل كناية عن الجماع عن كل ما يتعلق به، فالرفث باللسان: ذكر المجامعة وما يتعلق بها، والرفث باليد: اللمس، وبالعين: الغمز، والرفث بالفرج: الجماع. .

سبب اختيار تلك المفردة :

في إيثار التعبير بكلمة (الرفث) دون غيرها مثل (الجماع ، الاستمتاع ، المعاشرة ،المباشرة ، الملامسة، الإتيان ، الدخول بالنساء، الإفضاء إليهن..) ما يؤكد شمول تلك الكلمة لكل ألوان الاستمتاع من جماع ومقدمات وغير ذلك مما أحله الله عز وجل للمرء مع نسائه في ليل الصوم ، فاكتفى بذكرها عن كل هذه التفصيلات والكلمات الأخرى التي تحمل كل واحدة منها جزءاً من المعنى ، وصورة من صور المباح مما قد يتحرج المرء من فعله أو السؤال عنه ، فكانت بمثابة البيان الشافي لكل ما يعتمل في الصدور مما يمكن السؤال عنه .

وعند الزمخشري أن كلمة الرفث كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك. فإن قلت: لم كنى عنه هاهنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: (وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ) ، (فَلَمَّا تَغَشَّاها)، (بَاشِرُوهُنَّ) ، (أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ) ، (دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) ، (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ) ، (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ) ، (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ) ، (وَلا تَقْرَبُوهُنَّ) ؟ قلت: استهجانا لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختيانا لأنفسهم"[1]

قال ابن عرفة: " والجواب عندي بعكس هذا وهو أنّه مبالغة في الإباحة والتحليل فعبر عنه باللّفظ الصّريح حتى لا يبقى عندهم فيه شك ولا توهم بوجه. وعدّي الرفث بإلى لتضمنه معنى الإفضاء. ...ونقل عن ابن جني قوله : إنّ الرفث يتعدّى بالباء والإفضاء بإلى فذكر الرّفث ولم يذكر

(١) تفسير الكشاف ٢٢٩/١

معموله، وذكر معمول الإفضاء ولم يذكر عامله إشعارا بإرادة الجميع وأن الكل مقصود بالذكر"[١].

قال صاحب تفسير المنار معللا إيثار التعبير بالرفث دون غيره (وَقَدْ عَلَّمَنَا الْقُرْآنُ النَّزَاهَةَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْكَلَامِ فِيهِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْكِنَايَاتِ اللَّطِيفَةِ، كَقَوْلِهِ: (لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) وَ (أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) وَ (دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وَ (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ) وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: قَدْ ذَكَرَ هُنَا اللَّفْظَ الصَّرِيحَ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اسْتِهْجَانُ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ، وَهَذَا غَلَطٌ ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ بِمَعْنَى مَا لَا يَحْسُنُ التَّصْرِيحُ بِهِ مِنْ شَأْنِ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الصَّرِيحَةِ فِي ذَلِكَ، فَالْمَعْنَى أُحِلَّ لَكُمْ ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ"[٢] ، ولكنه جئ بِهِ مَحْمُولًا عَلَى الْإِفْضَاءِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْمُلَابَسَةُ.

ومن مرجحات جمعية تلك الكلمة أيضا تعديتها بإلي كما قال البقاعي: "ويدل عليه وصله بحرف الانتهاء بياناً لتضمين الإفضاء أي مفضين {إلى نسائكم} بالجماع قولاً وفعلاً"[٣]

موقع الكلمة في بنية الجملة :

سرّ تأخيرها وتقديم الجار والمجرور عليها والظرف، فيه:

١- معنى "التشويق" ، فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقبة إليه فيتمكن عندها وقتَ ورودِه فضلَ تمكّنٍ"[٤].

(١) تفسير ابن عرفة تحقيق د. حسن المناعي مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م٢/٥٥١

(٢) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م ١٤١/٢

(٣) نظم الدرر ٧٧/٣

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت ٢٠١/١

٢- وفيه كذلك تعجيل النعمة ، والتبشير بالخير، وإظهار اليسر الذي تقدم الحديث عنه في قوله﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقـــــرة: ١٨٥] فحين يذكر الحل ، وأنه جعل "لكم ، ويبين زمنه الذي وقعت فيه أحداث استدعت رحمة من الله لعباده ثم يذكر بعد ذلك المباح وما أحل وهو (الرفث) يكون ذلك أمكن في تثبيت النعمة ، والإشعار بفضل الله عزوجل ، وتيسيره عليهم ، بخلاف لو قال (أُحل الرفث لكم ..) فيكون في الأمر بشاعة؛ إذ يوهم أن تعلقهم كان بما يلذ الأجسام، وإنما يريد الله لهم ما يقربهم من الأنس بالرحمن.

٣- وفي التأخير نكتة أخرى وهى: أن مثل تلك الأمور مما ينبغي أن يؤخر في مواطن الطاعة ومواسم الخيرات ، فمع أنها من حاجيات النفس ، ولوازم الجسد إلا أن الأكمل عدم التشاغل بها ، والاندفاع نحوها ،بل الأفضل الاشتغال بالطاعات والقربات كما كان يصنع صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر : كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأَحْيَا لَيْلَهُ، وأَيْقَظَ أهْلَهُ" (١).

٤- وكذلك فإن التأخير جاء مرتبا ترتيبَ نزول الحكم ،ففرض الصيام كان أولاً ثم جاء التخفيف ، وأحلّ اللهُ في الليل ما كان محرما قبلُ ..فأتى السياق على النهج الذي أتى عليه النزول ..فتأخرت تلك الكلمة ترتيبا وموضعا كما تأخرت نزولا وحكما .

ولفظ (لكم) يشعر بكمال العناية ومزيد الرعاية من الله عزوجل ، ورحمته بهذه الأمة ؛إذ يشرع لها ما فيه صلاحها ، ويسوق لها ما هو أيسر عليها ، ويدفع عنها المشاق والمضار" لطفاً بهم ، وناسب أيضاً قوله تعالى

(١) صحيح البخاري برقم: ٢٠٢٤

في آخر آية الصوم " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وهذا من التيسير ، بخلاف الأمم السابقة الذين شدد عليهم ..ومثل هذا يتلاقي مع قوله في آخر السورة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

قال القشيري في لطائف التفسير: "نزلت الآية في زلّة بدَرتْ من الفاروق ، فجعل ذلك سبب رخصة لجميع المسلمين إلى القيامة. وهكذا أحكام العناية"(١).

وبين قوله (أحل لكم ليلة الصيام الرفث) هنا وقوله (عليكم) في أول آيات الصيام " كُتب عليكم الصيام) مقابلة ظاهرة تكشف عن رحمة الله بتلك الأمة المحمدية ، وتيسيره عليها في شئون دينها ، وفي التكاليف المفروضة عليها .

٢-(قل إصلاح لهم خير)

كلمة (إصلاح) من الكلمات الجامعة، وقد وردت في بيان ما يتوجب على وليّ اليتيم أن يفعله في معاملته سواء في الأمور المادية كالأموال والعقارات والضِياع، أو الأمور المعنوية كالتعليم والتهذيب وحسن الرعاية والتربية .وقد وردت في الإجابة عن سؤال المسلمين عن أمر اليتامى وماذا يصنعون معهم ..قال الله تعالى :﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

(١) لطائف الإشارات للقشيري تحقيق : إبراهيم البسيوني الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر الطبعة: الثالثة ١٥٨/١

والإصلاح : مصدر قياسيّ للفعل "أصلح" الرباعيّ، وزنه إفعال بكسر الهمزة. "أصْلَحَ الشيءَ: أقامه بعد فساد. والإصلاح: نَقِيضُ الإفساد الصَّلَاحُ: ضدّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال" (١)

سبب نزول الآية :-

أورد الإمام الواحدي في سَبَبُ نزول الآيَةِ ما قالَه السُدِّيُّ، والضَحّاكُ، أنَّ العَرَبَ كانَتْ عادَتُهم أنْ يَتَجَنَّبُوا مالَ اليَتِيمِ، ولا يُخالِطُوهُ في مَأْكَلٍ ولا مَشْرَبٍ ولا شَيْءٍ، فَكانَتْ تِلْكَ مَشَقَّةً عَلَيْهِمْ، فَسَألُوا عنهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ. وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ، وسَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ: سَبَبُها أنَّ المُسْلِمِينَ؛ لَمّا نَزَلَتْ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]الآيَةُ، ونَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠] تَجَنَّبُوا اليَتامى وأمْوالَهُمْ، وعَزَلُوهم عن أنْفُسِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ تُخالِطُوهم فَإخْوانُكُمْ﴾ الآيَةُ" .(٢)

فاصطفاء تلك الكلمة فيه توجيه إلهي لأولياء اليتامى أن يبحثوا عن الأفضل لمن جعلهم الله في كفالتهم، وتحت رعايتهم ، وأن يكون همّهم متوجها دوماً للبحث عن الأكمل والأفضل في شأن هؤلاء اليتامى، وأن يكون الإصلاح هو الأصل الذي ينطلقون منه ويدورون في فلكه، وتصطبغ كل تعاملاتهم به.

فقوله تعالى: قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ أي: مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم. وإنما أقيم غاية المداخلة- أعني

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة (صلح)

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي تحقيق :عصام بن عبد المحسن الحميدان – دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م ٧٢/١

الإصلاح– مقامها، تنبيها على أنّ المأمور به مداخلة يكون ترتب الإصلاح عليها ظاهرا. كأنها عين الإصلاح"(١)

فالإصلاح المطلوب في الآية ليس مقصوراً على جانب دون آخر ، بل يشمل جميع ما ينصلح به أمر اليتيم فالتعبير بالإصلاح " يجمع النظر في صلاح مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرهما، لكي ينشأ على علم وأدب وفضل؛ لأن هذا الصنع أعظم تأثيراً فيه من إصلاح حاله بالتجارة، ويدخل فيه أيضا إصلاح ماله كي لا تأكله النفقة من جهة التجارة، ويدخل فيه أيضاً معنى قوله تعالى:﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾ [النساء: ٢] ... فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولي. ..وبالجملة فالمراد من الآية أن جهات المصالح مختلفة غير مضبوطة، فينبغي أن يكون عين المتكفل لمصالح اليتيم على تحصيل الخير في الدنيا والآخرة لنفسه، واليتيم في ماله وفي نفسه، فهذه كلمة جامعة لهذه الجهات بالكلية.." (٢)

صياغة الكلمة ومدخلها في باب الجوامع :

دخلت كلمة (إصلاح) في باب الجوامع من طريقين :

الأول : كونها نكرة .. " وجاء جواب السؤال بجملتين: إحداهما: منعقدة من مبتدأ وخبر والثانية: من شرط وجزاء. فالأولى: تتضمن إصلاح اليتامى وأنه خير، وأبرزت ثبوتية منكرا مبتدأها ليدل على تناوله كل إصلاح على طريق البدلية، ولو أضيف لعم، أو لكان معهودا في إصلاح خاص، فالعموم لا يمكن وقوعه، والمعهود لا يتناول غيره، فلذلك جاء التنكير الدال على عموم البدل، وأخبر عنه: بخير، الدال على تحصيل الثواب، ليبادر

(١) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي تحقيق: محمد باسل عيون السود دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ ١١٤/٢ باختصار

(٢) مفاتيح الغيب ٦ /٤٠٤ باختصار .

المسلم إلى فعل ما فيه الخير طلبا لثواب الله تعالى، وأبرزت الثانية: شرطية لأنها أتت لجواز الوقوع لا لطلبه وندبته".[1]

الثاني : عدم إضافتها إلى شيء ، ليفيد شمولها وعمومها وجمعها لكل ما به يكون صلاح شأن اليتيم . فـ" ووصف الإصلاح بـ" لهم" دون الإضافة إذ لم يقل إصلاحهم لئلا يتوهم قصره على إصلاح ذواتهم لأن أصل إضافة المصدر أن تكون لذات الفاعل أو ذات المفعول فلا تكون على معنى الحرف، ولأن الإضافة لما كانت من طرق التعريف كانت ظاهرة في عهد المضاف فعدل عنها لئلا يتوهم أن المراد إصلاح معين كما عدل عنها في قوله: ائتوني بأخ لكم من أبيكم [يوسف: ٥٩] ولم يقل بأخيكم ليوهمهم أنه لم يرد أخا معهودا عنده، والمقصود هنا جميع الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم فيشمل إصلاح ذواتهم وهو في الدرجة الأولى ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ومعرفة أحوال العالم، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها"(٢)

دلالة المصدر :-

التعبير بالمصدر أقوى دلالة ، وأمكن في إيضاح المطلوب من غيره ؛ إذ في المصدر جمع بين الفعل والثبوت عليه واستمرارية ذلك فلا ينقطع

---

(١) البحر المحيط البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ ٤١٣/٢

(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بـ" التحرير والتنوير "
محمد الطاهر ابن عاشور الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ ٣٥٦/٢

حتى يتولى اليتيم أمر نفسه، ويقوم على شأنه ..فلو قال : أصلحوا لكان فعل الإصلاح مرة واحدة كافيا في الامتثال للأمر وتحقيقه ،ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا الفعل مستمرا باقيا مداوَما عليه. وكذلك أن يكون كل عملهم صلاحًا لا فساد فيه ، وفي هذا تنبيه إلى ضرورة الاعتناء بأمر اليتيم، وحسن تعهده ورعايته .

ومجيء المصدر مرفوعا يؤكد أن هذا الإصلاح من الأمور الواجبة فرضا وتعيينا ،وليس من الأمور المندوبة أو المستحبة فقط ، قال أبو البقاء في الكليات : " والرفع في باب المصادر التي أصلها النيابة عن أفعالها يدل على الثبوت والاستقرار بخلاف النصب..."(١)

" وبِالجملة فالمراد من الآية أنَّ جهات المصالح مختلفةٌ غيرُ مضبوطَةٍ، فيَنبغِي أن يكون عين المتَكَفل لِمصالح اليتِيم على تحصيل الخيرِ في الدنيا والآخرة لنفسِهِ، واليَتِيمِ في مالِهِ وفي نفسِهِ، فَهَذِهِ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ لِهَذِهِ الجِهاتِ بِالكُلِّيَّةِ.

دقة اختيار الكلمة :

ولأن الكلمة اختيرت بعناية إلهية ، ونزلت من لدن حكيم خبير فلو أردنا أن نأتي بكلمة تسد مسد كلمة (إصلاح) وتقوم مقامها ، وتؤدي دورها لما وجدنا أحسن صياغة، ولا أجدر بتحقيق المقصود ، ولا أليق بالسياق منها، " فإنه لو قيل إصلاحهم لتوهم قصره على ذواتهم فيحتاج في دلالة الآية على إصلاح الأموال إلى القياس ولو قيل قل تدبيرهم خير

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٨م صـ ٨١٧

لتبادر إلى تدبير المال فاحتيج في دلالتها على إصلاح ذواتهم إلى فحوى الخطاب"[1] .

علاقة الكلمة بمقصد السورة :

نلاحظ أن الإصلاح المأمور به هنا في شأن اليتامى هو أحد تفصيلات الشئون الأسرية المتشابكة وهذه التفصيلات تعد المقصد الثالث من مقاصد السورة الكريمة ، وحلقة من حلقات نظامها الذي جمع بين أطراف المعاني فيها ، وسبكها في سلك واحد يطرد فيها عرق واحد ، ويجري فيها ماء واحد على رغم أنها جمعت من معادن شتى"[2] .

وعلى غرار ذلك أيضا جاءت صيغة المفاعلة في كلمة (راودته) في قوله تعالى ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[يوسف: ٢٣]

وكذلك الجمع في كلمة (منافع) في مواطنها الثمانية في القرآن ومنها قول الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ **[الحديد: ٢٥]**

(١) ا التحرير والتنوير ٣٥٦/٢

(٢) ينظر كتاب : النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم د/ محمد عبدالله دراز دار القلم الطبعة التاسعة ٢٠٠٥م صـ٢٦٩

المبحث الثالث :

تبيين الوجوه والمعاني المطوية في الكلمة الجامعة بعدها مباشرة.

ومن مسالك ورود المفردات الجوامع في القرآن : أن تذكر المفردة الجامعة ثم يأتي بيانها خلفها ، فيُنشر ما طوته ، ويُسرد ما أوجزته بعدها مباشرة ..وكأنه تفصيل بعد إجمال ، وبيان بعد إبهام .ولا شكّ أن هذا من دروب البلاغة العليّة ، ومسالكها التي لا تخفي على كل ذي لب متأمل في القرآن الكريم .

وعلى هذا النهج جاءت الكلمات الآتية :

١- (البِرّ)

جاءت كلمة البر في سورة البقرة تصحيحاً لأمرٍ توهمه بعض الناس من أن البر هو في تولية الوجه ناحية المشرق أو المغرب والالتزام بذلك ، فأوضح القرآن أن البر يجمع الخير كله ، وأنه لا يقتصر على الظاهر فقط ،وإنما يشمل حركة الحياة كلها ،قال الله تعالى :﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

فالبرّ :- اسْمٌ جَامِعٌ للطاعات المقربة إلى الله تعالى ولِأَعْمَالِ الْخَيْر وخصاله كلها " نظرية وعملية في معاملة المخلوق وعبادة الخلق وتزكية الأخلاق"[١]

(١) النبأ العظيم صـ٢٤٧

وقد جاء بيان ما جمعته كلمة (البر) وتفصيل ما أجملته في الآية نفسها عقيب ذكر الكلمة الجامعة ، وهذه إحدى الطرق التي يسلكها القرآن في بيان كلماته الجوامع .

فأخبر أن البر جامع للتقوى، فَأَمرهمْ بِسَائِر الشَّرَائِع، ومكارم الأخلاق، وبيَّن أن البر الحقيقي هو في الإيمان بالله تعالى وملائكته، وكتبه المنزلة على رسله الكرام ، والإيمان بسائر النبيين دون تفرقة ، وكذا البر يكون بالإحسان إلى الخلق بإيتاء المال المحبوب إلى النفوس وإنفاقه لذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل ومن تعرض للسؤال وتحرير الرقاب المؤمنة والسعي في فكاكها ، وكذلك البر يكون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكذا الوفاء بالعهود وعدم خيانتها ، والصبر في مواطن البأساء والضراء وحين البأس....كل هذا جمعته كلمة البر ، واختُزن داخلها ، وطُوي فيها .

أخذت الآية سبيل التشويق وجذب انتباه السامعين حين صححت لهم مسار اعتقادهم الخاطئ في فهم البر وتحقيقه ، فأتت بأسلوب النفي والاستدراك (ليس البرَّ أن ... ولكنّ البر..) ، فنفت أمرا وأثبتت آخر ، فحين يُلقى على سمع السامع هذا يتشوف لمعرفة حقيقة البر الذي كان يظنه في أن يولى وجهه قبل المشرق والمغرب ، فتأتيه الإجابة وقد استعدت نفسه ، وتهيأ قلبُه ، وأصغى سمعه فتتمكن من النفس أيما تمكن ..وتلك من طرق القرآن أيضا في تثبيت الحقائق في النفوس وتقريرها في القلوب لا سيما إذا كانت تصحيحا لخطأ ، أو تنبيها لمغفولٍ عنه ، أو تبييناً لفضيلة مذهول عنها ..إلخ .

قال الراغب في تفسيره (البر: التوسع في أفعال الخير، بدلالة ما قاله – عليه السلام – وقد سأله أبو ذر عن البر، فتلا عليه قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ} الآية إلى قوله:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}. فذكر جملة أفعال الخير، فرائضها، ونوافلها، ومكارم الأخلاق كلها... (١)

ولما كانت الكلمة من المفردات الجوامع جاء تفسيرها وبيانها معطوفا بالواو ، للتنبيه على نكتة لطيفة وهي ضرورة اجتماع كل هذه الصفات والامتثال بها ليستحق فاعلها اسم البر.. وهذا ما قرره الإمام الواحدي حين قال : "هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع، فمن شرائط البر وتمام شرط البارّ أن تجتمع فيه هذه الأوصاف، ومن قام به واحدٌ منها لم يستحق الوصف بالبر، فلا ينبغي أن يظن الإنسان أن الموفي بعهده من جملة من قام بالبر، وكذا الصابر في البأساء، بل لا يكون قائماً بالبر إلا عند استجماع هذه الخصال، ولذلك قال بعضهم هذه الصفة خاصة للأنبياء عليهم السلام لأن غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف كلها، وقال آخرون هذه عامة في جميع المؤمنين"(٢).

٢- وكذلك كلمة (هلوعا) في قوله تعالى :﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج: ١٩-٢١]

الهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير، فإذا مسه أدني شيء من الشر كمرض أو فقر .. لم يصبر بل جزع قنط ، وإذا مسه خير من مال أو صحة أو ولد ... اطمأن إليه ، ومنع حق الله عليه .

قال الإمام الماوردي : " وفي الهلوع ستة أوجه :أحدها: أنه البخيل، قاله الحسن.

(١) تفسير الراغب الأصفهاني تحقيق : محمد عبد العزيز بسيوني كلية الآداب – جامعة طنطا الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م /١٧٤- ٣٧٧

(٢) التفسير البسيط للواحدي الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ ٥٢٩/٣

الثاني: الحريص، قاله عكرمة .الثالث: الضجور، قاله قتادة.

الرابع: الضعيف، رواه أبو الغياث .الخامس: أنه الشديد الجزع، قاله مجاهد.

السادس: أنه الذي قاله الله تعالى فيه : ﴿إذا مسه الشر﴾ الآية، قاله ابن عباس"(١).

وأورد الزمخشري في تفسيره عن أحمد بن يحيى (ثعلب)، قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله، ولا تفسير أبين من تفسيره، هو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس.

فكلمة (هلوعا): كما قرر الإمام ثعلب جمعت بين وصفين ، وقد جاء بيانها بعدها مباشرة وهما : الجزع عند حدوث الشر ، والمنع عند حدوث الخير.

واعترض الطاهر ابن عاشور على هذا التحديد من قِبل الإمام ثعلب فقال : " سارت كلمة ثعلب مسيراً أقنع كثيرًا من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع، وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى؛ لأنه إذا كان قول الله تعالى ﴿إذا مسه الشر جزوعا﴾ ﴿وإذا مسه الخير منوعا﴾ تفسيراً لمدلول الجزوع، تعين أن يكون مدلول الكلمة معنى مركبا من معنيي الجملتين لتكون الجملتان تفسيرا له، وظاهر أن المعنيين ليس بينهما تلازم، وكثير من أيمة اللغة فسر الهلع بالجزع، أو بشدة الجزع، أو بأفحش الجزع، والجزع: أثر من آثار الهلع وليس عينه.... والذي استخلصتُه- الطاهر ابن عاشور- من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه. وأما

(١) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي ٩٤/٦

الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء. وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع.

وأرى أن الأمر قريب ؛ لأن كلام الإمام ثعلب ليس غلقاً لباب التأويل، ولا تخطئة لكلام غيره ، وإنما هو من قبيل التفسير للمعنى الذي لا يمنع أن يضيف إليه غيره طالما أن الكلمة تتسع لاستيعاب هذا الجديد .وتلك من سمات المفردات الجوامع .

قال الفخر الرازي : " فإن قيل: حاصل هذا الكلام أنه نفور عن المضار طالب للراحة، وهذا هو اللائق بالعقل فلِم ذمه الله عليه ؟ قلنا: إنما ذمه عليه لأنه قاصر النظر على الأحوال الجسمانية العاجلة، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل الله تعالى كان راضيا به، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية"[١]

مع بلاغة الكلمة في سياقها :

جاءت الكلمة على صيغة المبالغة (فعول) " التي تأتي لمن كثر منه الفعل"[٢] ،وفي ذلك دلالة على تمكن تلك الخصلة في الإنسان ، وتوغلها في نفسه، وكثرة وقوعها منه ، وأنها شيء لا ينفك عنه . وكذلك جاءت الصفات المفسرة (جزوعا – منوعا) وهذا من الائتلاف بين الكلام ،أن يرد المفسِّر على وفق المفسَّر .

ولما كانت هذه الصفات المذكورة مذمومة غير محمودة أتي التعبير بالفعل المبني لما لم يُسمّ فاعله فقال : (خُلق) – مع أن الفاعل معروف

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ٦٤٤

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي تحقيق: عبد الحميد هنداوي المكتبة التوفيقية ٣/٧٥

وهو الله جلّ جلاله – وذلك تأدباً في الحديث عنه سبحانه ، كما جاء في دعائه صلى الله عليه وسلم : (الخير كلّه بيديك ، والشرُّ ليس إليك)، وهو مسلك من مسالك الإخبار في القرآن الكريم.

والتعبير بـ"إذا" في الجملتين يفيد أن الجزع والمنع كلاهما متحقق وواقع ومشاهد .

وكلمة المس تشعر بأنه بأدني ما يكون ويحصل من الشر أو الخير تظهر تلك الصفة المذمومة وهي (الهلع) ، وهذا أيضاً من ائتلاف اللفظ مع المعني .

قال البقاعي في نظم الدرر: ولما كان الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، نشر معناه فقال مُقدما المعمول الذي هو الظرف على العامل بياناً لإسراعه في ذلك :﴿إذا مسه﴾ أدنى مس ﴿الشر﴾ أي هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضر ﴿جزوعا﴾ أي عظيم الجزع، وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقدُّ نصفين ويتفتّت، ﴿وإذا مسّه﴾ أي كذلك ﴿الخير﴾ أي هذا الجنس وهو ما يلائمه فيعينه من السعة في المال وغيره من أنواع الرزق ﴿منوعا﴾ أي مبالغا في الإمساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفاً مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة، وهذا الوصف ضد الإيمان، لأنه [أي الإيمان] نصفان: صبر وشكر"[1]

٣- ومن ذلك أيضا تفسير الصابرين بثلاثة مواطن وهي المذكورة في قوله تعالى :﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

فقد فسر الصبر بأنه إنما يكون في تلك المواطن الثلاثة : حالة البأساء ، وحالة الضراء ، وحالة حضور البأس ، وهي مواقعه التي لا

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢٠ /٤٠٠

يعدوها كما قال الراغب : استوعب أنواع الصبر لأنه إما أن يكون فيما يحتاج إليه من القوت فلا يناله، وهو: البأساء ، أو فيما ينال جسمه من ألم وسقم ، وهو : الضراء ، أو في مدافعة مؤذيه، وهو : البأساء .

وهكذا تجد الكلمة تجمع ثم تنشر مرة أخرى ليحص بذلك ترابط أجزاء الكلام ، والتحام أوصاله بعضها ببعض ، فيصير كالسبيكة أُفرغت إفراغا .

الخاتمة

في نهاية المطاف هذه أهم النتائج والفوائد التي ظهرت من خلال هذا البحث :-

١- القرآن لا يزال مليئاً بدلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة .

٢- المفردات الجوامع وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ومظهر من مظاهر أسراره .

٣- إيجاز القصر ليس مقصوراً على الجمل التي هي جوامع للكلم ، ولكن ربما أتي بالمفردة كذلك .

٤- المفردة الجامعة صالحة لاستيعاب كل ما قاله أهل التفسير والمعاني في توضيح دلالتها ، وبيان المقصود بها .

٥- للقرآن الكريم مسالك متعددة في إيراد المفردات الجوامع تتجلى فيها روعة الإعجاز ، وبراعة الإيجاز .

٦- حين تطلق الكلمة من القيود فإنها تكون صالحة لتجمع كل المعاني التي تكون قيدا فيها ، وبيانا لمعناها .

٧- الكثير من المصطلحات الشرعية التي وردت في القرآن يغني ذكرها عن العديد من تفصيلات الأعمال والتشريعات .

٨- تتدخل الصياغة اللغوية في تحديد جمعية الكلمة أو عدم جمعيتها .

٩- حين يرد بيان المفردة الجامعة بعدها مباشرة ،فإن ذلك يزيد من سبك الكلام والترابط بين أجزاءه ، والتناسب بين مكوناته.

١٠-ضرورة العناية بمقالات أهل التفسير ، وحسن النظر في مقالاتهم ،وإسقاط القواعد البلاغية عليها ومزجها بها ،فالبلاغة مخبوءة تحت كلامهم ،ومركوزة في مناهجهم وأساليبهم .

فهرس الآيات القرآنية

الآية	اسم السورة	الصفحة
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ	الفاتحة	١٨١٦
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ	البقرة	١٨٠٥
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا	البقرة	١٨١٥
أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ	البقرة	١٨١٩
يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ	البقرة	١٨٢٣
ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ	البقرة	١٨١٩
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ	البقرة	١٨١٥
ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ	البقرة	١٨١٨
يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ	البقرة	١٨١٦
لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ	البقرة	١٨٣٠
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ	البقرة	١٨٣٥
قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ	آل عمران	١٨٠٥
وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ	النساء	١٨٢٦
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا	النساء	١٨٢٥
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ	النساء	١٨١٨
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ	النساء	١٨٠٥
وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ	الأنعام	١٨٢٥

فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ	الأنفال	١٨١٤
وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ	الأنفال	١٨١٠
ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ	التوبة	١٨١٧
وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا	يونس	١٨١٧
وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ	يوسف	١٨٢٩
وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ	محمد	١٨٠٨
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا	الروم	١٨٠٩
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ	فصلت	١٨١٧
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	الذاريات	١٨١٦
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ	الحديد	١٨٢٩
إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا	المعارج	١٨٣٢

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- أسباب نزول القرآن للواحدي تحقيق :عصام بن عبد المحسن الحميدان – دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م
- البحر المحيط البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ
- بيان إعجاز القرآن للخطابي –ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام دار المعارف الطبعة السادسة ٢٠٢٢م
- التبيان في أيمان القرآن لابن القيم تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي دار عالم الفوائد/ مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري تحقيق : حفني شرف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف ب" التحرير والتنوير " محمد الطاهر ابن عاشور الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ
- تفسير ابن عرفة تحقيق د. حسن المناعي مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م.
- التفسير البسيط للواحدي الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ
- تفسير الراغب الأصفهاني تحقيق : محمد عبد العزيز بسيوني كلية الآداب – جامعة طنطا الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

- تفسير المنار للشيخ رشيد رضا طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي تحقيق :عبدالرحمن اللويحق دار الغد الجديد الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م
- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
- الجدول في إعراب القرآن تأليف محمود الصافي دار الرشيد/ دمشق الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ .
- جماليات المفردة القرآنية أحمد ياسوف دار المكتبي الطبعة الثانية ١٤١٩هـ .
- جوامع الكلم القرآنية عبدالله بن عبدالرحمن الرومي دار التدمرية الطبعة الأولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
- الخصائص لأبي الفتح ابن جني تحقيق : محمد على النجار دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ .
- دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر للإمام عبد القاهر الجرجاني دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي مجلة الحكمة، بريطانيا الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .
- دلائل الإعجاز للجرجاني قرأه وعلق عليه محمود شاكر مكتبة الخانجي الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م .
- رسالة العبودية لابن تيمية تحقيق : محمد زهير الشاويش نشر المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م

- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي تحقيق عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
- شروح التلخيص طبعة عيسى البابي الحلبي
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق / محمد محيي الدين عبدالحميد دار الطلائع ٢٠٠٩م
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري تحقيق: الشيخ زكريا عميرات دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى– ١٤١٦هـ.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج القسم الدراسي: د. جميل بني عطا الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ضُبط وصُحح بإشراف :عبدالمحسن سليمان عبدالعزيز المكتبة التوفيقية الطبعة الأولى ٢٠١٣م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ
- الكلمَاتُ البَيِّنَاتُ في قَولهِ تَعَالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ} للشيخ : مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلى تحقيق د. عبد الحكيم الأنيس – المكتب الإسلامي لإحياء التراث الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٨م

- لطائف الإشارات للقشيري تحقيق : إبراهيم البسيوني الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر الطبعة: الثالثة
- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي تحقيق: محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ
- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ للبقاعي مكتبة المعارف – الرياض الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧ م
- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي طبعة عالم الكتب – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ
- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير آيات قرآنية لعبد الحميد الفراهي تحقيق :محمد أجمل أيوب الإصلاحي دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى ٢٠٠٢م
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق ناصر الدمياطي مكتبة فياض ٢٠٠٩م
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم د/ محمد عبدالله دراز دار القلم الطبعة التاسعة ٢٠٠٥م
- النكت للرماني – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام دار المعارف الطبعة السادسة ٢٠٢٢م
- النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية – بيروت
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي تحقيق: عبد الحميد هنداوي المكتبة التوفيقية